

مؤتمر

"التاريخ الشفوي: المفهوم والمنهج وحقول البحث في المجال العربي" الخلفية النظرية والمحاور والموضوعات

الخلفية النظرية

تجاذبت فكرة التاريخ الشفوي في العقود الأخيرة، نظريات وآراء اختلفت في تعريف ماهيته وتحديد نشأته وتعيين دوره وقيّمته، سواء من حيث وزن المقاربة المعرفية (الإبستمولوجية) في تطوّر علم التاريخ، أو من حيث توسيع وظيفة هذا العلم؛ لاستكمال جمع أوجه المعرفة الاجتماعية والإنسانية، ولإظهار كلّ جانب مسكوت عنه أو مُهمّش أو مطموس في الحياة الاجتماعية والإنسانية لدى الناس، كلّ الناس.

على مستوى التعريف والنشأة

يذهب البعض إلى أنّ كلّ التواريخ في العالم بما فيها أوروبا، ومنذ هيروdot وحتّى ميشليه مرورًا بفولتير، كانت في أساسها أو أكثرها، شفوية ثمّ كتبت، ولم يتمأسس التاريخ المكتوب بوصفه علمًا أو حقلاً معرفياً أكاديمياً Discipline إلاّ في غضون القرن التاسع عشر.

وبإمكاننا أن نقول إنّ نشأة علم التاريخ عند العرب، بدأت شفوية، عبر الرواية المتناقلة والإسناد المتواتر أو المنقطع. وحتّى في مرحلة التدوين والكتابة التاريخية المتنوّعة الأبعاد والحقول والاهتمامات، ظلّت الشهادة الشفوية مصدرًا مهمًّا وأساسياً للخبر التاريخي، منذ اليعقوبي وحتّى الجبرتي، مرورًا بكتّاب الخطط والرحلات والجغرافيا، ولا سيّما عند كبيرهم المسعودي الذي يعدّه البعض "إتولوجيا" مبكرًا، جمع معلوماته وأخباره عن طريق الاستماع والملاحظة والمحاورة والمقابلة.

الإشكالية الجديدة للتاريخ الشفوي

تتركز الإشكالية البحثية المعاصرة في موضوعة التاريخ الشفوي منذ سبعينيات القرن الماضي وحتى اليوم، على أسئلة تتجاوز السؤال عن النشأة أو عن حضور المصدر الشفوي، واستخدامه في الكتابة التاريخية. إن هذا الاستخدام كان ولا يزال ضرورةً وحاجة، وإن أجمعت مدارس التاريخ الوضعي منذ رنكه الألماني Ranke وسينيوبوس الفرنسي Seignobos، على أهمية "الوثيقة المكتوبة" وأولويتها؛ إذ رهنوا المعرفة التاريخية بها، "فإذا ضاعت الوثيقة ضاع التاريخ"، كانت هذه اللازمة تتردد بلا انقطاع عبر أجيال المؤرخين المتعاقبين على هذه المدرسة.

تقع الإشكالية المعاصرة للتاريخ الشفوي" في السؤال الذي بدأ صوغه في الغرب أولاً، بعد الحرب العالمية الثانية، وهو "من يُؤرِّخ وكيف يُؤرِّخ للذين لا تاريخ لهم؟" (والمقصود هنا، ليس لهم تاريخ مكتوب). أي للذين عانوا وشردوا وخضعوا للعذابات، أو للذين قاوموا.

بعد الحرب العالمية الثانية، جرى تجميع الشهادات الشفوية ممّن عاصروا الحرب، بمعاركها ومآسيها ومهازلها وعذاباتها وقصصها وبطولاتها، في كلِّ من أوروبا والولايات المتحدة. واتّجهت هذه الشهادات إمّا نحو الأرشفة والتوثيق، ليستخدما المؤرخون المحترفون لاحقاً، أو نحو النشر المباشر كمذكرات وروايات وقصص وانطباعات وأفلام.

في بلدان العالم الثالث، وفي مرحلة الاستقلال الوطني في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ظهرت **الشهادة الشفوية**، مصدرًا للإعلام والفضح والكشف والتعبئة، وفي الكتابة التاريخية أيضًا. في معترك حركات التحرر الوطني ضدّ الاستعمار، دخلت أيضًا في صميم تشكيل الذاكرة الجماعية والهويّات الوطنية ضدّ التذويب والاستلاب والافتلاع، والتأريخ للمعدّبين تحت الاحتلال.

لكن بدءًا من سبعينيات القرن الماضي، بدأت تهتزّ ركائز التاريخ الأكاديمي الذي كان ينغلق على نفسه عبر الكتب الصفراء وفي الأرشيف القديم والمكتبات المغلقة. اخترق "سحر" التاريخ الشفوي أبواب نظام "علم التاريخ" وقواعده Discipline صارم، فاعترف به مصدرًا من مصادر التاريخ مكملًا لأوجه أخرى من التاريخ المعاصر أو التاريخ الراهن. علمًا أنّ التاريخ الأكاديمي بمدارسه الوضعية كان قد تخلف أشواطًا عن

إنجازات "التاريخ الجديد". وعندما انفتح المؤرخون الجدد، على امتداد فترةٍ طويلةٍ من القرن العشرين بدءاً من مؤسسي مدرسة الحوليات، وحتى ثمانينيات القرن العشرين، على العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولا سيّما على الإثنولوجيا والتحليل النفسي والأسنّيات، ظهرت أعمالٌ رائدة تتألف فيها وتتعاقد في كلّ عضوي، مناهج متكاملة من العلوم الاجتماعية والإنسانية وفي طليعتها المنهج التاريخي، كأعمال آرييس وفوكو وبيرنورا وجاك لوغوف وآخرين.

كانت الشهادة الشفوية، وبتأثير المنهج الإثنولوجي البنيوي الذي يعتمد الملاحظة والحوار المفتوح وتلقّي خطاب الآخر، مصدرًا لدراسة الأرياف والقرى والفلاحين والعمّال، والأحياء المهمّشة في المدن والمعاقين، والأطفال والنساء، والسود والمهاجرين...إلخ. بهذا تكوّن نوعٌ من علمٍ جديد أطلق عليه البعض مصطلح الإثنو - تاريخ Ethno-histoire إذ يتكامل العلمان (التاريخ والإثنولوجيا) في دراسة الجماعات والهويّات والذاكرة، وأداتهما المعرفية هي التاريخ الشفوي بوصفه أفضل معبّر عن العواطف الصامتة والأفكار المكبوتة، والمواقف الممنوعة أو المحاربة من جانب الفكر السائد أو "التاريخ السائد".

غريباً

أسفر الجدل والممارسة في مجال ممارسة التاريخ الشفوي، أي التعاطي مع الشهادة الشفوية عن نزعتين أو تيّارين:

- **تيّار الأرشفة الأكاديمية (التوثيق)؛** إذ يجري تجميع الشهادات الشفوية ليستخدمها المؤرخون المحترفون لاحقاً في الجامعات والمكتبات والأقسام الأكاديمية، بوصفها جزءاً من التاريخ المكتوب للزمن المعاصر والتاريخ الراهن، أو جزءاً من سجلّات لشخصيات مميّزة وشهود على حوادث تاريخية.
- **تيّار المعرفة الاجتماعية المباشرة والمناضلة؛** إذ للشهادة الشفوية دورها ووظيفتها الكاشفة، ليس في التاريخ وحده وإنما في علم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع الثقافة وعلم الاجتماع السياسي أيضاً (مثال بعض أعمال بورديو). علماً أنّ لهذا التيار جذوره وتجليّاته التي ظهرت في أوروبا خلال حركات الاحتجاج الطلابية في أواخر ستينيات القرن الماضي؛ إذ نقدت الاحتجاجات البرامج الأكاديمية المقنّنة والتصفوية، ونقدت الخطاب السائد النافي للأقليات والمهمّشين والنساء والملونين.

الإشكالية عربياً

لا يزال التاريخ الشفوي عديم الحضور في أوساطنا العلمية الجامعية والثقافية، وإن كان له بعض الحضور الخجول في بعض الكتابات الدعوية، فإنّ دوره لا يزال ثانوياً ومحدوداً جداً. وقد تكون حالة فلسطين عربياً، حالة خاصة أو استثناءً؛ فأشكال التاريخ الشفوي في فلسطين تبرز كتجليات "هوية ممانعة" تأبى أن تذوب أو تقتلع في مواجهة مشروع "تهويد فلسطين"، لذا تبرز الذاكرة والذاكرة الجماعية خصوصاً، "مصنع" إنتاج للصور المختلفة من أجل البقاء والاستمرار: الأرض، والتربة والشجرة، والحي، والبيت، والأغنية والترنيم والرقص، والاسم والبطل، والصورة والحكاية...كلّها تستعاد في تاريخ لا تقوى على تظهيره إلا "الشهادة الشفوية". وهي في عصر الإنترنت والصوت والصورة، تعيد ترسيم واقع وتاريخ يحاول "المتغلبون" تشويههما وإلغاءهما.

ويكتسب التاريخ الشفوي أهمية راهنة مع الثورات العربية. فعلى الرغم من التغطية الإعلامية الحديثة، ودور تكنولوجيا الاتصال والتواصل التي ظهرت الكثير من الصور والأخبار والحوارات، تبقى قطاعات من المشاركين في الثورات، بل ربّما من صانعي الحدث والفاعلين فيه، على هامش الإعلام وأدوات الاتصال الحديثة، أي من "المجهولين" الذين لم يظهر "صوتهم"، و"صوت" هؤلاء قد يعني "شيئاً آخر"، أو "شيئاً مضافاً" إلى ما كُتب، وإلى ما بثّه الإعلام وأدوات الاتصال الأخرى.

المحاور والموضوعات

المحول الأول: في المفهوم والمنهج والوسائل (موضوعات مقترحة)

- تعريف التاريخ الشفوي: نشأته عالمياً وعربياً، واستخداماته عبر التاريخ والزمن المعاصر.
- الخبرة التاريخية العربية القديمة في الرواية الشفوية: الإسناد ومحدوديته كمصدر تاريخي (التعديل والتجريح في التمهيص التاريخي ومحدوديته في المنهج التاريخي).
- الشهادة الشفوية في التاريخ المباشر (التاريخ الراهن): مدى صلاحيتها وصدقيتها "كوثيقة تاريخية".

- الشهادة الشفوية بين المنهج الإثنولوجي والأنثروبولوجي من جهة، والمنهج التاريخي من جهة ثانية، في مدى تعبيرها عن الذاكرة (الفردية والجماعية) والواقعة التاريخية.
- الذاتية والموضوعية في الشهادة الشفوية: جدلية العلاقة بين المحاور، والمحاور معه في المقابلة.
- الشروط الموضوعية للمحاورة.
- الشهادة الشفوية: وسيلة للأرشفة الأكاديمية في الجامعات ومراكز الأبحاث (التوثيق) أم وسيلة للكشف عن المسكوت عنه والممنوع ونزع الحجاب عن "الحقائق" المطموسة والمهمّشة.
- الصحافة والتاريخ الحدثي المباشر.
- أشكال الإعلام المرئي وأنماط التواصل الاجتماعي (الإلكتروني)، ودورها في أرشفة التاريخ الشفوي.
- موضوعات أخرى.

المحور الثاني: في الحقول التطبيقية

هل تستطيع طرائق التاريخ الشفوي أن تضيف جديدًا للتاريخ المكتوب: دراسة نماذج وأمثلة من خلال شهادات:

أ) في حقل التاريخ الاجتماعي - الثقافي: جدلية العلاقة بين الذاكرة والتاريخ

- في الفرد والجماعة والهوية والوطن (خبرات وتجارب فردية وجماعية).
- في مجال الفنّ والإبداع (حالات لم يكتب عنها) - السير المهنية لكتّاب وعلماء تربيين، مؤسسي مدارس وجامعات ومكتبات.
- وقع "الحدائث" على مجتمع قروي، أو على قبيلة أو طريقة صوفية - دراسة نماذج من خلال شهادات شفوية، لإعادة بناء تاريخ اجتماعي لم يكتب عنه.
- الجاليات العربية في بلدان أوروبا وأميركا، وبلدان أخرى.
- الاثنيات واللغات التي لم يكتب تاريخها.

ب) في حقل التاريخ السياسي والحدثي

- شهادات لشهود عاصروا حروباً وثورات وانقلابات وحركات تحرّر وطني في البلدان العربية، شهادات من فلسطين المحتلة.
- شهادات من الثورات العربية الراهنة والتحوّلات السياسية التي رافقتها أو نتجت منها.
- شهادات في الإدراكات المتبادلة بين العرب وجوارهم: تركيا، وإيران، وأفريقيا (صورة الآخر).

على أن تنتظم الشهادات في الورقة البحثية المقدّمة في بناء تاريخي تتجلّى فيه أهمية الشهادة الشفوية في التاريخ للحدث "المنسيّ" أو الذاكرة الجماعيّة.

ج) في حقل التاريخ الاقتصادي

- تجارب وخبرات رجال أعمال ومؤسّسي مشاريع.
- رسملة قطاعات اقتصادية (تقليدية): زراعة - حرف ...
- التصنيع ودخول الآلة في قطاعات اقتصادية معيّنة.
- تاريخ مؤسسات فاعلة في الاقتصاديات الوطنية.
- إلخ...

المحور الثالث: مقاربات جديدة في موضوعات ذات فريدة

- المرأة العاملة.
- المرأة الريفية (الفلاحة).
- العمل والعمّال.
- النقابات والمؤسسات.
- الطفل والطفولة.
- الإعاقة والمعاق.
- المريض والمرضى والمستشفى.
- السجين والسجن.

- الحبّ والعواطف.
- الموت: التّصوّرات والتقاليد والمؤسسات.
- موضوعات أخرى.